

تشاؤم «عبدالرحمن شكري» بين الظنّ و الواقع (دراسة و نقد)

الدكتور أبو الفضل رضائي*

أستاذ مساعد بجامعة الشهيد بهشتي - طهران

الدكتور علي أكبر نورسيده

أستاذ مساعد بجامعة الشهيد بهشتي - طهران

الملخص

كان عبدالرحمن شكري برهافة حسه و دقة نظره شاعرا كثر في شعره ما يدل على تشاؤمه و اشتهر الشاعر عند بعض الدارسين بهذه النظرة غير أن الباحث المتأمل يجد في أشعاره، الكثير من الأبيات التي تبعث على الأمل و تدعو إلى التفاؤل في الحياة لذا فإن تشاؤمه ليس مظلمًا قاتمًا بل إن هناك بروق أمل تظهر بين حين و آخر في أشعاره حيث يعتقد الشاعر أن الانسان يمتاز بقوة تستطيع أن تبدل التشاؤم إلى مفهوم من مفاهيم التفاؤل في الحياة. يدرس هذا المقال مدى صحة زعم القائلين بتشاؤم شكري فتناول البحث دراسة شعره و استخراج الشواهد التي توضح مدى صحة ذلك الادعاء من خلال استعراض أدلة القائلين بالتشاؤم عند شكري الذي يظهر في طيات دواوينه و إظهار الصبغة التفاؤلية في شعره الذي يغلب أحيانا تلك الصبغة المتشائمة.

الكلمات الدلالية: الشعر العربي المعاصر، التفاؤل، التشاؤم، عبدالرحمن شكري.

*. E-mail: a_rezayi@sbu.ac.ir

تاريخ الوصول: ۱۳۹۱/۰۴/۱۹؛ تاريخ القبول: ۱۳۹۱/۰۶/۲۴.

المقدمة

تُما يجدر بالانتباه في دراسة الشعراء من وجهة نظر السايكولوجية هو أن يتقصّي الباحث معرفة الأمور أولاً و يستخلص من شواهد شعرهم الشاملة الكاملة رأياً. و من يريد أن يدلي برأي ثابت عام، ينبغي له أن يفنى جزءاً كبيراً من عمره للتقصّي و البحث و الإلمام بكلّ ناحية من نواحي الموضوع حتى لا يخطئ في الحكم إلا أن البعض إذا أراد أن يبدي رأيه عن التفاضل و التشاؤم في قول ناثر أو شاعر لم يميز بين الحالات العارضة الزائلة، و بين النظرة إلى مستقبل الإنسانية. و لم يفرق بين التشاؤم الذي هو تنبيط و بين التشاؤم الذي هو استحثاث للهمم؛ و يحسب أن كل وصف للشقاء تشاؤم كأنه لا يعرف أنّ الغفلة عنه و التفاؤل به هما تشاؤم أحمرّ من التشاؤم، و يخلط بين ما تظهره الدراسات النفسية السيكولوجية من حقائق مرة و بين التشاؤم، كأنه يريد أن يبقى الناس على جهلهم بنفوسهم، و هذا هو التشاؤم حقاً؛ لكن يبدو أن عدداً من دارسي شعر عبدالرحمن شكري و الذين اهتموه بالتشاؤم كثيراً ما يجادعون أنفسهم و يظهرن الغيرة على الرأي الصائب حيناً في الرأي و لا حيناً للحق و الصواب.

المقال هذا يحاول أن يجيب الأسئلة التالية:

هل كان شكري شاعراً متشائماً كما يرى كثير من الباحثين؟ أم هل كان شكري خلاف ما يرونه شاعراً متفائلاً و ما هي أدلة الذين يرونه متشائماً؟ كيف كان تشاؤم شكري؟ هل كان شكري شاعراً متشائماً بحتاً أم كان يتشائم حيناً و يتفائل حيناً آخر حسب الظروف؟ يشتهب الأمر علي الكثير بأن شكريا حسب ما يرى من ظاهر أمره شاعر مشتك من الحياة و مظاهرها كئيب ذو وجهة تشاؤمية، لكنه في الواقع حكى نظرتة التفاؤلية في ظاهر متشائم بدلائل عدة نثبتها في هذه المقالة.

نظراً إلى مكانة عبدالرحمن شكري في الأدب العربي المعاصر عموماً و في النقد الأدبي خصوصاً بوصفه من رواد الأدب العربي المعاصر و من أوائل أتوا بجديد في الشعر و النقد و نظراً إلى الهجوم العنيفة التي شنتها بعض دارسي شعره و النقد اللازع الذي يوجه إلى وجهته الشعرية و الفكرية، من الواجب القيام بدراسة كهذه للردّ على هذه المزاعم و للذود عن شعر أحد أساطين الأدب العربي المعاصر لم يعرف حق معرفته.

فيما يتعلق بالدراسات المسبقة، لم يتطرق أي بحث إلى إثبات تفاؤل شكري أو التقلص من شدة التشاؤم الذي ينسب إليه، من حيث كتب الأستاذ شوقي ضيف مقالةً معنونة بـ «دراسة التشاؤم في شعر عبدالرحمن شكري» كما ألف كتاباً مسمى بـ «دراسات في الشعر العربي المعاصر» عارضاً الصورة المتشائمة من شكري خلال الشواهد المتعددة من شعره و إن كانت لا تخلو هذه الشواهد من الإشكالية. أيد الأستاذ أنس داود من تلامذة شكري رأي ضيف بمقدمته على ديوان شكري. و ثمة كثير من الكتب التي تناولت الشاعر و خصّصت باباً بدراسة تشاؤمه. منها كتاب «عبد الرحمن شكري ناقداً وشاعراً» لـ «عبدالمحسن الشطي» الذي يدرس شاعرية شكري و تقدمه في النقد دون توفية حق شكري و إبعاده عن التشاؤم الذي نسب إليه الدارسون. و من دارسى شعر شكري الأستاذ محمد مندور في كتابه «النقد و النقاد المعاصرون» فهو يبحث عن آراء شكري النقدية و يتطرق إلى ظاهرة الوجدان في شعره لكنه قليلاً ما ينظر إلى وجهة شكري الشعرية و إن كان لا تخلو فكرته عن الميل إلى نسبة التشاؤم إلى شكري. و من هؤلاء الدارسين يمكن الإشارة إلى محمد يسري سلامة الذي يبحث في كتابه «شكري شاعر الوجدان» عن مكانته في مدرسة السديوان و أغراضه الشعرية و إن كانت وجهته لا تخفى حول تشاؤمه و يشير بين فينة و أخرى إلى هذا الأمر عبر الشواهد المعروضة من شعره.

نحن في هذه الخطوة المتواضعة نقدم الشواهد الشعرية المبعثرة في طيّات ديوان شكري لإثبات تفاؤله. و اعتماداً على المنهج الوصفي - التحليلي نقد آراء القائلين بتشاؤم شكري و نستجلى حقيقة الأمر.

تصور عام من حياة شكري و أدبه:

ولد عبد الرحمن شكري من أب و أمّ مصريين من أصل مغربي في الإسكندرية سنة ١٨٨٦م، و كانت وفاته سنة ١٩٥٨م. كان من ألمع شعراء مصر في مطلع القرن العشرين مجدداً و ثائراً على القديم (شامي، ١٩٩٩م، ج٣: ٢٠٠).

كان شكري كثير المطالعة في الأدبين العربي و الغربي. فقد قرأ اللغة الإنجليزية وأدبها منذ نعومة أظفاره و أعجب بشعر الرومانسية الإنجليزية، فتأثر به في الروح و المنهج و فهم فهماً جديداً لمهمة الشعر غير ما كان يفهمه شعراء العربية قبله. كان طابع هذه المدرسة الإنجليزية، البساطة في التعبير و عدم التقيد بما كان يسمّى «المعجم الشعري» بل كان أصحابها يؤثرون الكلمات المألوفة الشائعة الاستعمال ثمّ الاهتمام بالنفس الإنسانية في أبسط صورها فلم يحفلوا بالملوك و الأمراء و إنّما فتشوا

عن النفس الساذجة البسيطة التي لم يلوثها النفاق الاجتماعي و الرياء و الزيف. كان شعرهم وجدانياً يخرج من أعماق نفوسهم و يستلهم مشاعرهم وحدها ولكنهم لم يتشاءموا و لم يفعل الحزن و الأسى بهم فعلة بإخوانهم شعراء الرومانسية الفرنسية الذين صبغوا شعرهم صبغة حزينة سوداء و قد قرأ لهم شكري فأصيب بالحزن و الكآبة التي صارت طابع شعره كله (الدسوقي، بلا، ٢٢٤ - ٢٢٥).

و قرأ أيضا لزعماء المدرسة الأدبية الواقعية في بريطانيا الذين صبغوا شعرهم بالحزن والكآبة و التشاؤم فتأثر شكري بهذه التزعة و جاء أدبه حزينا كثيبا. شكري لا يميل إلى شعر المناسبات بل ينفر منه كثيرا و لم يكن من المهتمين باختيار الألفاظ ذات الجرس و الرنين في شعره بل كان بسيطا في تعبيره و دعا إلى الوحدة العضوية للقصيد. حدّد شكري في مقدمة ديوانه مهمة الشاعر بقوله: «ينبغي للشاعر أن يتذكر أنه لا يكتب للعامة، و لا لقربه، و لا لأمة و إنما يكتب للعقل البشري و نفس الإنسان أين كان، و هو لا يكتب لليوم الذي يعيش فيه و إنما يكتب لكل يوم و كل دهر، و هذا ليس معناه أنه لا يكتب أولًا لأتمته المتأثر بحالتها المتهينة ببيتها. و لا نقول إن كل شاعر قادر على أن يرقى إلى هذه المرتلة ولكنه باعث من البواعث التي تجعل شعره أشبه بالمحيط - إن لم يكن محيطا - منه بالبركة العطنة في المستنقع الموبوء» (شكري، ١٩٦٠م، ديوان) و يفهم من هذه العبارات الجميلة أيضا أنه ينفر من شعر المناسبات و الأحداث اليومية التي تحيط بالشاعر.

شكري بين التشاؤم و التفاؤل

يجدر بنا أن نلنت إلى أنه إذا نتحدث عن التشاؤم و التفاؤل في قول ناثر أو شاعر علينا أن ننظر إلى أثر الحالات العارضة و إلى نظرهما إلى مستقبل الإنسانية؛ و لأن نفرق بين التشاؤم السذي هو تشييط الأمم و بين التشاؤم الذي هو استحثاث للهمم؛ و لانحسب أن كل وصف للشقاء تشاؤم إذ أن الغفلة عنه و التفاؤل به هو تشاؤم أحرّ من التشاؤم، و لا نخلط بين ما تظهره الدراسات النفسية السايكولوجية من حقائق مرّة و بين التشاؤم. لإزالة هذا الوهم من الواجب أن نتطرق إلى التعريف اللغوي و الإصطلاحي للتفاؤل و التشاؤم لنكشف عن حقيقة التشاؤم الذي ينسب إلى شكري.

التفاؤل لغة: «من الفأل، و هو قول أو فعل يستبشر به ، و تفاعل بالشيء: تيمّن به. ضد الطيرة و الجمع فؤول و الأفول، و الفأل: هو أن يكون الرجل مريضاً فيسمع آخر يقول يا سالم، و في الحديث؛ كان رسول الله (ص) يحبُّ الفأل و يكره الطيرة» (ابن منظور، ١٣٨٨هـ.ش، مادة فأل).

اصطلاحاً: يعرف التفاؤل بتعريفات متعددة و منها ما يلي: عرفه شاعر، كارفار بأنه «النظرة الإيجابية، و الإقبال على الحياة، و الاعتقاد بإمكانية تحقيق الرغبات في المستقبل، بالإضافة إلى الاعتقاد

باحتمال حدوث الخير أو الجانب الجيد من الأشياء بدلاً من حدوث الشرّ أو الجانب السيئ» و عرفه تاييجر بأنه: «دافع بيولوجي يحافظ على بقاء الإنسان، و يعدّ الأساس الذي يمكن الأفراد من وضع الأهداف أو الالتزامات» (الأنصاري، ١٩٩٨م، ١٤).

التشاؤم لغةً: من باب شَأْم ، و شَأْم الرجل قومه أي جرى عليهم الشؤم فهو شائم و الأشأم هو الأيسر و المشأمة ضد الميمنة (ابن منظور، ١٣٨٨هـ، ق، مادة «شأم»). و في التنزيل الحكيم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ (البلد: ١٩)

اصطلاحاً: «التشاؤم توقّع سلبي للأحداث القادمة، يجعل الفرد ينتظر حدوث الأسوأ، و يتوقع الشرّ و الفشل و خيبة الأمل، و يستبعد ما خلا ذلك إلى حدّ بعيد» (الأنصاري، بلا، ١٥). يحدث التشاؤم عندما يقوم الفرد بتركيز انتباهه على الاحتمالات السلبية للأحداث القادمة، و تخيل الجانب السلبي في النص. ، و من ناحية أخرى أشارت دراسات عديدة إلى ارتباط موجب بين التشاؤم و كل من الاكتئاب و اليأس و الميل إلى الانتحار و الوجدان السلبي و الفشل في حل مشكلات الحياة و النظرة السلبية إلى صدمات الحياة و الشعور بالوحدة. (م ن، ٧٧)

يبدو أنّ بعض دارسي شعر شكري و منهم الأستاذ شوقي ضيف لا يرون فرقاً بين ما قد يدعوا إليه شعر العاطفة و الدراسة النفسية من وصف حالات النفوس على اختلاف تلك الحالات من حسنة و كريهة، و لا دعوة للتثبيط أو للتقنيط بل دعوة إلى أن يكون الشعر شعراً حياً لا أدياً ميتاً متكلّفاً للتفاؤل. (فرهود، ١٩٧٥م، ١٤٧)

و الذي يدعوا إلى التشاؤم حقاً في دراسة باحثي شعر شكري هو أن تنشر قصيدة (العصر الذهبي) التي نظمها شكري لتمجيد الجهود الإنسانية في ماضيها و حاضرها و مستقبلها، و قصيدة (نحو الفجر) التي جعل شكري الفجر في آخرها رمزاً لفجر مستقبل الإنسانية؛ و قصيدة (شهداء الإنسانية) التي تدعو إلى نصره من ضحوا بحياتهم و سعادتهم لتحقيقها ؛ و قصيدة (الشباب) التي تعبّر عن أمل الإنسانية في جهود الشباب و آماله و أحلامه ؛ و قصيدة (الباحث الأزلي) الذي خلّده البحث و الأمل، و الذي ينشر للإنسانية الحقّ و الرقي؛ و قصيدة (إلى المجهول) التي تدعو إلى تقصّي أسرار الحياة و الحقيقة ، و التشاؤم هو أن تنشر و تعدّ هذه القصائد في عداد القصائد المتشائمة.

نقد القائلين بتشاؤم شكري:

كان يرى شوقي ضيف أنّ التشاؤم كان يتعمّق في نفس شكري ، ولأنّه كان يقرأ في الشعر العربي، فيتأثر بابن الرومي و المتنبي و أبي العلاء ممن عانوا هذه الأزمة من قبله ، و كان يقرأ في الآداب

الغربية، فكان يتأثر بشعراء الحركة الرومانسية الذين أصابهم نفس الداء، و كان يجد في قراءة أولئك و هؤلاء لذة لاتقدر، فأمعن في تشاؤمه و في سخطه و يأسه و حيرته و قلقه و شكّه (ضيف؛ ١٩٧١م، ١١٢).

و إنه ليصرخ في الجزء الأول من ديوانه:

لقد لفظتني رحمة الله يافعاً فصرتُ كأني في الثمانين من عمري

(شكري، ١٩٦٠م، ٥٨)

رغم ما يذهب إليه شوقي ضيف من تشاؤم شكري في هذا البيت يجب القول: يبدو في هذا البيت صبغة الألم و الشكوى و الذي يشكو فيه الشاعر من كثرة المصائب، الشاعر خلافا لما يرى الباحث لا يتشائم بالحياة بل يظهر خيبة أمله من نعمة الله لكثرة ما أصابه من مصائب الحياة. كما يشكو الشعراء السابقون كزهير ابن أبي سلمى في البيت التالي:

تعبت تكاليف الحياة و من يعيش ثمانين حولاً لاحمالة يسأم

(زهير ابن أبي سلمى، ٢٠٠٥م، ١٤٢)

يرى عبدالحسن الشطي أنه يعلو الصراخ في الجزء الثاني من ديوان شكري من الحبّ و المرأة و خيبة أمله فيهما و في المساعي البائرة، و يكثر من وصف الليل و ظلماته، و يصف ضوء القمر و لكن فوق القبور، و يتحدث عن غربته في دنياه و يقول إنه عليل (الشطي، بلا، ٢١٤):

إن أكن عاتشاً فعيشُ عليل الـ —نفس يدوي مثل الرجاء العقيم

(شكري، ١٩٦٠م، ١٨٥)

يبدو أن الدارس هذا قد التبس عليه الشكوى من الحياة و التشاؤم ، لأنّ شكرا كما قلنا لم يكن شاعراً متشائماً من حيث يتحدث هنا و هناك في ديوانه عن حياة أفضل و ينتظر لكنه يخيب أمله بعدما رأى من خيبات الأمل ما رأى.

رغم ما قال الشطي حول شدة تشاؤم شكري في قصيدة «حلم بالبعث»، (الشطي، بلا، ٢٠٩):

رأيتُ في النومُ أي رهنُ مُظْلِمَةٍ مِنِ المقابرِ مَيْتاً حَوْلَهُ رَمَمُ

(م ن، ٢٧٥)

نرى أن قصيدته «حلم بالبعث» من القصائد النفسية التي تطرقت إلى الجوانب الخفية في نفسية الشاعر. كان شكري يتعمق في الله و مظاهره في الطبيعة، و إثر هذا التعمق قد تصوّر أنه قد رأى في النوم كونه رهينا في مقبرة الشكوك، لكنه ما لبث أن رجع عن هذه الشكوك في كنه الأشياء و تاب إلى الله في نفس القصيدة قائلاً:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ لَعْنِهِ وَ مِنْ عَبَثِهِ وَ مِنْ جِنَايَةِ مَا يَأْتِي بِهِ الْكَلِمُ

(م ن، ٢٧٥)

يرى أنس داوود أنّ الجزء الثالث من ديوان شكري يفتح بالحديث عن الحبّ و الموت و الحياة و، فالموت يطلّ عليه من كل مكان ، و كأنّه يأخذه من جميع أطرافه، بل يأخذ الناس جميعاً» (داود، بلا، ٢٥)

و ما الدهرُ إلا البحرُ و الموتُ عاصفٌ عليه و أعمارُ الأنامِ سفينُ

(شكري، ١٩٦٠م، ٢٤٥)

كما نعلم لا يعتبر الحديث عن الموت من مظاهر التشاؤم ، لأن التفكير في الموت و وصفه لا ينحصر في نفسية المتشاؤم فقط. بل نرى أن ذكره يطيب النفس و يجعلها فارغة من الألم. فأين الموت من التشاؤم؟! من التشاؤم!؟

يزعم أنس داود زعمه عن التشاؤم المنسوب إلى شكري و يقول: نطلّ مع شكري في وسط هذا العباب الطافح بالأحزان لا في الجزء الثالث من ديوانه فحسب، بل أيضا في الجزء الرابع ، و نقرأ في مطالعة قصيدة «المجاهد الجريح» (داود، بلا، ٣٤):

هو العيشُ حربٌ و الحياةُ جهادُ و إنّ حياةَ العالمينَ سهادُ
و ليست نفوسُ الناسِ إلا أسنةٌ لها كلُّ يومٍ مطعنٌ و جلادُ

يجب القول أن هذين البيتين اللذين قد ذكرا من مظاهر التشاؤم في شعر شكري، هما من قصيدة يصعب أكثر أبحاثها بلون التفاؤل، لأن الشاعر يتمنى إعادة هذه الحياة التي يشكو منها في البيتين المذكورين:

و لا أشتكي أنّي جرعتُ مريّرها و يا ليتَ عُمرًا في الحياةِ يعادُ

(شكري، ١٩٦٠م، ٢٤٥)

و كيف يمكن أن يتمنى المرء إعادة الحياة التي هي جهاد في سبيل الوصول إلى المنى ، إن لم يكن المرء متفائلاً. استمرارا لما يذهب إليه أنس داود عن تشاؤم شكري نجده قائلاً في المقدمة التي كتب في ديوان شكري: « ينظم شكري الجزء الخامس من ديوانه في هذا العناء النفسي، بل الخنة لتشدّ به ، و يشعر شعوراً عميقاً بأن الشؤم يلازمه و أنه لا مفر منه إلا أن يخلص من الحياة و يستقبل الموت، و ما فائدة الحياة التي يتحمل فيها كل هذه المشقات، فيقول في «شقوة العيش» (داود، بلا، ٤٠):

حياتي أَمَا النحسُ حدٌّ و لا مدَى فإني كرهتُ العيشَ في أوّلِ الصبا

فيا موتٌ أقبِلْ لا كإقبالِ رائِعٍ مريرٍ كقطعِ العيشِ يؤمُّ مَنْ حسا

(شكري، ١٩٦٠م، ٤٤٤)

إجابة على هذا الزعم نقول إنَّ شكريا كان رجلاً مرهف الحس و كان قد تكبّد آلام كثيرة من قبل ما يرجو منه الخير ، لكنه قد تطاير به إثر ما رأى منه من سوء التصرف و هذا قد أثر في نفسية الشاعر طالباً إقبال الموت للتخلص من هذه الحياة المرة.

من الحق أن نشير إلى قول شوقي ضيف الذي رغم تحدّثه عن تشاؤم شكري في كتابه لكنه يرى حقاً أنّ: «سوداوية شعر شكري التي تنبئ أحياناً في شعره ليست مرضية بل هي بالأحرى وليدة ظروفه الاجتماعية . قد طغت موجات اليأس طغياناً جارفاً على جميع الشباب و جميع النفوس ، و هو طغيان قد فلّ العزائم و ثبطَ الهممَ و أمت الآمال و القلوب. فقد كان يجمّ الاحتلال الإنجليزي على صدور وادي النيل و لم يكن الشباب المصري حينئذ مبتهجا بل كان حزينا حزناً شديداً و من هنا أصبح قرار النغم عند شكري قائماً». (ضيف، ١٩٨٠م، ١١٢-١١٣)

قال أنس داود: « الناس في نظر الشاعر يتسمون بالعباء و المجتمع يرى عليه الجهل و الخمول و سيظلّ هذا حال المجتمع الإنساني و لا أمل للشاعر». (داود، بلا، ٢٣)

نرى أن الناقد الكريمين ينصفان في القول أن تشاؤم شكري إن كان له مظاهر في شعره، كان وليد الظروف الاجتماعية و السياسية التي كانت تحكم على المجتمع المصري و يدعنان أن تشاؤمه لم يكن تشاؤماً مرضياً و لا خاصاً به بل كان نرى جذوره في نفسية أكثر الشباب المصريين و البعض منهم يخلص نفسه باللجوء إلى ما يشغله و البعض الآخر كعبد الرحمن شكري كان يتأثر به و يصوره حقاً في شعره لأنه كان يصور الحقيقة الراهنة في المجتمع المصري .

مظاهر من تفاؤل شكري:

إن في النفس البشرية قوّة تستطيع أن تحول التشاؤم إلى غرض من أغراض التفاؤل، و إلى قوّة من قوى الاستبسال في طلب الأمل (إنّما اليأس سبيل للمنى). إذا كان لقاتل قولان: قول ينم عن تشاؤم و آخر عن تفاؤل ، فليس من الإنصاف أن نشير إلى اليأس في بعض قوله و نغفل عن أمله في بعضه ولو كان الأمل أقل؛ فإذا كثر الأمل أو إذا تعادلا، يقل إخلاصنا إن لم نشر إليه. لا نعي أن نقاد و باحثي شعر شكري غير مخلصين للأدب. لكننا نرى أنّ الأحسن في هذه الحال أن نذيع القول المتفائل و تفاؤله غير القليل المتزور. إنّ الشاعر أو الناثر لا يحكم عليهما و لا يقال إنّهما متفائلان أو متشاومان بما يقولانه في حالتهما النفسية العارضة المتغيرة، لأنّ كل نفس تفيض بالسرور و الأمل تارة، و تنقبض

بالحزن تارة، و نفس تبدي السرور في موطن الحزن كالذي لا يستطيع إلا الضحك، و الحالة هذه ليست فضيلة ولا قوة. «كان شكري شاعراً مرهف الحس و كان يتأثر بظروف حياته الصعبة و من الحق أن يشكو الحياة حيناً و يعلو صراخه، و من الحق أن نقول أن تشاؤمه لم يكن تشاؤماً مرضياً ساخناً بل كان تشاؤماً غير مستقرٍ في نفسه». (ضيف، ١٩٧١م، ١٢٤)

نرى أن تشاؤم شكري كان إثر التعبير عن حقائق الحياة، و الحياة بما فيها قد تسبب التشاؤم و التطير. شكري لا يتشائم بكنه الحياة و بذاتها، لكنه كان يتطير بما يحدث فيها. فذات الشاعر لم تكن متطيرة بالحياة.

نراه في البيت التالي يعترف بتغلب قوى الخير و دواعيه على الإنسان:

صَرَّحَ الخَيْرَ و الأذى فيه و الخير أغلب

(شكري، ١٩٦٠م، ١٦٧)

يذهب شكري إلى أن غلبة الخير على الشر أمر محتوم، و في هذا الكلام إشارة إلى نزعات الشاعر المتفائلة، لأنه يجزم أن الشر مهما كان قواه تغلب أمام الخير و قوى الخير تشيد صرحها أمامه و يتحقق الأمان و تنشر رائحته في جميع أنحاء العالم. ويرى شكري أن الأمل و العمل من صفات العظيمة:

أعاضمُ الناسِ في الأواءِ كمَ صبرُوا إنَّ العَظيمَ عَظيمُ السعيِ و الأملِ

(شكري، ١٩٦٠م، ٢٠٢)

إن لم يكن المرء متفائلاً بالحياة و متحملاً مشاكلها و صعوباتها لم يدع الآخرين إلى المثابرة أمامها و لن يحمده العظيم. لأن العظيم يعشق العظيم. و شكري كان رجلاً عظيماً و يثني على الأعاضم، و العظيم لن يتطير بالحياة و لن يتخذ الوجوهات المتشائمة.

ينشد شكري الأمل و الرشاد في قصيدة «المجاهد الجريح» و يقول إننا غفلنا و جهلنا عن حقيقة الحياة و عمّا خلقنا له و يتمنى إعادة هذه الحياة المحفوفة بالصعوبات، يا ترى هل يتمنى المتشائم بالحياة إعادتها؟

و لا أشتكي أتّي جرعتُ مريرها و يا لبتَ عمراً في الحياة يُعادُ
فأجرعُ منه الحلوَ و المرَّ إنَّما مشاربُ من يهوى الحياة يُرادُ
جهلنا فماندري على العيشِ ماالذي يرادُ بعيشِ نحنُ فيه نقادُ
سوى أن عيشَ المرءِ بالشكِ فاسدُ و أن يقيناً في الحياةِ رشادُ

(م ن، ٣٣٥-٣٣٦)

يجدر بالإشارة أن أكثر عناوين قصائد شكري يدلّ على الدعوة إلى الأمل كما يتّضح من ذكر ما ذكرناه من القصائد و ما لم نذكر كالإيمان و القضاء و الحياة و العمل و العظيم و البطل و قوّة الفكر و علالة العيش و المثل الأعلى و خلود التجارب و الملاء الأعلى. ففي قصيدة «الحياة و الحق» يرى الشاعر أن العامل الرئيسي لهبوط المرء هو الخوف و الذعر، و يبدو أنه لا يخاف إلا المتشائم بالحياة و مظاهرها. و يدعو إلى التزوّد بنفسية عدم الخوف و التفاؤل بالحياة و التجرّؤ لمواجهة المشاكل :

يا قلبُ لا يغنيك ذعركُ للأسى فالخوفُ أوّلُ مهبطِ المهوأةِ

(شكري، ١٩٦٠م، ٤٧٨)

و في قصيدة «العيش و الرجاء» يرى الشاعر أن طلب المنى هو الطريق الوحيد للعيش، و الذي لا يتمنى في حياته حدير بالانتحار و الموت، لأن الحياة تحلو و تحمّل بالتمني و غير المتمني في الحياة هو الميت و إن كان يتحرّك. المتشائم بالحياة لا يطلب المنى، لأنّه يجزم أن الحياة لا تواجهه بخير ولا تجديه نفعاً:

لا عيشَ إلا بطلابِ المنى لولا المنى في عيشه لانتحر

(م ن، ٤٦٧)

و في قصيدة «المثل الأعلى» يرى أن عيش العظماء هو في طلب العظيم، و الذي لا يبغي عظيمًا لا يجدر بالحياة. الرضى بالحياة الراكدة و الإقناع بالراحة في الحياة من إرهاصات المحتقرين و الأدلسة، بمس الحياة الصامتة الراكدة و هي التي تنتن:

و العيشُ إن لم تبعه عظيمة فالعيشُ حلمُ طوارقِ الأعوامِ
بمست حياة قد رضيت براكد من أمرها و قنعت بالإجمامِ

(شكري، ١٩٦٠م، ٥٠٠)

و حتى في قصيدة «الموت» جعل الموت باعثاً للأمل و يبت فيه نفسية التفاؤل و التطلّع إلى المستقبل، حتى الجازع عن العيش لا يستطيع أن ينسى لذة الحياة و لا يرضى بالموت فما بال المتشائم بالحياة؟

و هيهات أن يسألوا عن العيش جازعاً من العيش حتّى يصبح العيشُ ماضيًا
و حتى يموت الموتُ لولاه ما بكى حريصٌ على دنياه يخشى المرازيا

(م ن، ٥٩٠)

و في قصيدة «الشجرة و الغراب» يعتقد شكري بأنّ الخير لا يطلب إلا بعد تحمّل الأذى و الشرّ. كأنّه ينظر إلى الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: ٦) و يرى إن لم يذق المرء من مرارة

الحياة شيئاً فكيف يستطيع أن يميز بين الشرّ والخير حتّى يتشائم بالحياة ، و في البيت الثاني يدعو إلى الصبر، لأنه وراءه تحصل المعرفة الحقيقية بالحياة و العالم:

إذا أنتَ ما ذُقتَ منِ ضرِّها أ تعرفُ ما الخيرُ منِ شرِّها
و في الصبرِ صبرٌ يريكِ الدُّنسى كأنك رفعتَ عن أمرِها

(م ن، ٥٣٥)

يتحدد الأمل و التفاؤل و الطموح في قصيدة «مصارع النجباء» ، يرى شكري أنّ جمال الحياة و جلالها نعمة و عطاء من النعم الإلهية و إرث من النجباء و النبلاء و أنّ الأحياء دون الأمل و التفاؤل بمستقبل الحياة أموات بحتة:

إنّ الحياة جمالها و بماءها هبة من النجباء و الشهداء
لولا طماحُ الحالمين و همهم بقي الوري كالثربة الغبراء

(شكري، ١٩٦٠م، ٣٣٤)

فليست للتفاؤل عقيدة أعظم ممّا في هذه الأبيات التي يرى فيها الشاعر أن عظمة الحياة و شأن الوجود لا يقاس بما شيء، فيجب تحمل ما فيها من الغدر و الاحتيال و الموموم و الغموم لنيل حقيقة الحياة:

كلُّ ما في الوجودِ مما يُريقُ الـ دمعٌ أو يستميحُ شحوَ الرّحيمِ
كلُّ غدرٍ و قسوةٍ و احتيـالٍ و احترامٍ و لوعةٍ و همومِ
كلُّ شرٍّ مهما تعاضمَ لو قيـ سنَ بشأنِ الوجودِ غيرُ عظيمِ

(م ن، ٢١٧)

و قصيدة «الحياة و الفنون» كلّها تفاؤل بجمال الفنون في الحياة و وصف لجمال كل فنّ من الفنون الجميلة و النافعة، و طالب جمال الحياة لا يتشائم بل هو متفائل و إن كان يتشائم بعض الأحيان بما يتلقّى من الغدر من الناس خاصة من الأصدقاء:

جمّلك الله يا حياة كما جمّل وجهه السماء بالشُّهبِ

(م ن، ٢٨٦)

وصف في الأبيات التالية تفاؤل النفس و اعتقد بأنّه فجر الإنسانية في المستقبل، يرجو الشاعر المتفائل أنّ العالم في بداية صباح تزول و تنهار فيه ظلمة الجور و الشرّ. إن لم يكن شكري متفائلاً لم يسرّ بالنعماء و الرفاهية عند الآخرين و لو كان نفسه في الشدة:

و أمّلتَ للعالم صباحاً موحّلاً سيكشفُ عنها ظلمة الضيّمِ والشرِّ

فكـلُّ صباـحِ رمـزُه و مثـالُه و وعدُّ به يـحدو إلى الزمـنِ النـضـرِ
نـسـرُ بنـعمـاءٍ و إن لم تـكن لنا و ننشـدُه فيـما يـكونُ من الدَّهـرِ
(شكري، ١٩٦٠م، ٦٣٠)

والذي يستطيع أن يصف سحر «ضحكات الأطفال» كما استطاع شكري، ففي قلبه نور الأمل لأن الأطفال هم أمل الحياة. يرى شكري أن ضحكة الأطفال طاهرة و شأها كشأن كلمات الله التي تزيل الذنوب و المعاصي، و هي ضحكة تصير الشيخ شاباً و تبدل شحب الوجه بالنضرة:

ضحكة ردت المشيب شباباً وأمانت من الوجوه الشحوبا
ضحكات كآتها كلمات الـ له تحو مآثماً و ذنوبا

(م ن، ١٤٥)

هل نجد تفاعلاً أكثر من تفاعل شكري في «عجب الحياة»، إن لم يكن الشاعر متفانلاً لم يطلب الخير و الصلاح للمجتمع لأن المتشائم لا يبحث عن الخير لنفسه فما باله من طلب الخير و الأمان للآخرين:

و أبغى صلاح الكون و الناس مثلما مضى في بناء عامل و أجيرُ

(م ن، ٦٨٣)

و في أشد القصائد حزناً كما في قصيدة «بين الحياة و الموت» و هي من الأشعار الظاهرة التشاؤم يرى شكري أن العيش له لذة الخمر و إن يأخذ بعقل المرء و العيش بأنه سائق لشاربيه و إن يجلب له الآلام و يتسبب له المصائب:

ولكنه كالخمر تحلو لشاربٍ و إن سلبت منه النهى و السرائرُ

(شكري، ١٩٦٠م، ٢٤٧)

نرى في الشواهد المستخرجة من طيات ديوان شكري أنه يدعو في أكثرها إلى بذل الجهد للوصول إلى المنى و الصبر على ما ينال المرء في الحياة من الصعوبات و التزود بنظرة متفائلة إزاء الكون. «إنه ليس من الإنصاف ترك أحسن ما في قول القائل. من العدل أن نحكم على القائل بما يقوله في وصف أمله في الحياة وحثه إلى المثل العليا و ما يقوله في تمجيد جهود الناس فيها» (فرهود، ١٩٧٥م، ١٥٤). كما نرى صبغته المتفائلة في قصائد أخرى منها: «أبناء الشمال، شهداء الإنسانية، إلى المجهول، الباحث، قوة الفكر، العصر الذهبي، الحق و الحسن و النشوة و الارتقاء». و يحكم عليه أيضاً حكماً صادقاً إذا نظر الناقد فيما قاله القائل في وصف محاسن الحياة و الأرض و الكون، فإذا استطاع أن يجمل الحياة بقدرته فته على وصف آيات الكون و الطبيعة، لم نستطع أن نقول إن التشاؤم

غالب عليه، و لا ندرى كيف يستطيع ناقد أن يقول هذا القول إذا قرأ وصف محاسن «الصحراء» لعبد الرحمن شكري.

النتيجة

وصلنا عبر البحث المتقدم إلى النتائج التالية:

- ١- يبدو أن شكرياً لم يكن شاعراً متشائماً كما زعم بعض النقاد و الدارسين منهم الأستاذ شوقي ضيف و الجمع الغفير من الذين ألفوا كتباً قيمة عن شكري، بل كان متفائلاً و ذا وجهة نظر عقلانية .
- ٢- يرى الشاعر أنّ في النفس البشرية قوّة تستطيع أن تحول التشاؤم إلى غرض من أغراض التفاؤل، و إلى قوّة من قوى الإقدام و الشجاعة في طلب الأمل.
- ٣- على الناقد للحكم على الشاعر أن ينظر إلى آثاره بدقة وافية و يتعمق فيها للحيلولة دون كون نقده انحيازياً بعيداً عن العدل و الإنصاف.
- ٤- كان شكري متفائلاً واقعياً لا يضحك دون أيّ مبرر و لا يرى الحياة مسودّة بل يصفها في غاية الجمال و هذا ما يدلّ على وجهته التفاؤلية، لأنّ من يصور جمال الحياة لا يستطيع أن يتشاءم.
- ٥- صحيح أنه يرى بعض الأشياء بعين التشاؤم لكنّ هذه نظرة عابرة لا تدوم و الحكم على تشاؤمه لهذه الوقفات التشاؤمية أمر لا يؤيده العقل و الوجدان اليقظ.

المصادر و المراجع

- القرآن الكريم.

- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، (٥١٣٨٨هـ.ش). «لسان العرب»، بيروت: دار صادر،
- الأنصاري، بدر محمد، (١٩٩٨م). «التفاؤل و التشاؤم المفهوم و القياس و المتعلقة»، جامعة الكويت: مجلس النشر العلمي.
- داود، أنس، «عبدالرحمن شكري نظرات في شعره»، القاهرة: الهيئة العامة للتأليف و النشر المكتبة الثقافية.

- الدسوقي، عمر، «في الأدب الحديث»، بيروت: دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع.
- زهير، أبي سلمى، (٢٠٠٥م). «ديوان»، شرح: حمد و طماس، بيروت: دار المعرفة، ط٢.
- شامي، يحيى، (١٩٩٩م). «موسوعة شعراء العرب»، بيروت: دار الفكر العربي، ط١.

- شكري، عبدالرحمن، (١٩٦٠م). «الديوان»، جمع و تحقيق: نقولا يوسف، توزيع نشر المعارف بالإسكندرية، ط ١.
- _____ ، (١٩٩٨م). «المؤلفات النثرية الكاملة (المجلد الأول و الثاني)»، تحرير و تقديم: أحمد إبراهيم الهواري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.
- شوقي، ضيف، (١٩٧١م). «دراسات في الشعر العربي المعاصر»، القاهرة: دارالمعارف، ط ١٠.
- _____ ، (١٩٨٠م). «دراسات في الأدب العربي المعاصر في مصر»، القاهرة: دارالمعارف، ط ١٢.
- عبدالمحسن الشطي، عبدالفتاح، (١٩٧٥م). «عبدالرحمن شكري ناقدًا و شاعرًا»، القاهرة: دار قباء.
- فرهود، محمد السعدي، (١٩٧٥م). «التيار الفكري في شعر عبدالرحمن شكري»، القاهرة.
- محمد سلامة، يسري، (١٩٩٤م). «عبدالرحمن شكري شاعرالوجدان»، دارالمعارف الجامعية، إسكندرية مصر.